

الخطابة بعده المجد الأحميمي⁽¹⁾، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

ثامناً: أهم صفات العز بن عبد السلام:

تميزت شخصية الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمجموعة من الصفات من أهمها:

1 - الشجاعة: من الصفات التي لازمت العز بن عبد السلام طيلة حياته: الشجاعة في الحق، ذلك لأنه كان مع الحق يدور حيث دار، وما قصته مع نائب السلطان عندما عزم على بيع المماليك إلا دليل ساطع على شجاعته وجراته وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سلطاناً، ولا يهاب الموت في سبيل الله، وقد ذكر ابن البكي: أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة معتمة وهو في بيت عالم في بستان متطرف عن البساتين وأحاطوا بالبيت، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب البيت، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعد حسن، وأخرج لهم ضيافة حسنة فتناولوها وطلبوا منه الدعاء، إذ كان مهيباً له موقع حسن في القلوب فهابوه،

(1) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 127.

وعصم الله أهله وجماعته منهم بصدق نيته وكرم طويته وانصرفوا عنه⁽¹⁾ . . ومن المواقف التي تدل على شجاعته :

- إنكاره على الملوك التنازل عن ديار المسلمين وعقد الصلح مع الصليبيين المعتدين: لما تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، وأسلمهم قلعة صفد وقلعة الشقيف وصيدا وبعض ديار المسلمين؛ ليساعده على الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر، لأن الصالح إسماعيل خاف منه، فكاتب الفرنجة، ليساعده ضد ابن أخيه حاكم مصر، فكان الثمن تسليم ديار المسلمين وتطبيع العلاقات وفتح الحدود، فدخل الصليبيون دمشق⁽²⁾ . وكان ذلك في عام (638هـ) وزيادة على ذلك أذن الصالح إسماعيل للصليبيين بدخول دمشق لشراء السلاح لقتال المسلمين في مصر، وهذه خيانة عظمى واستلام ذليل، وخروج عن الدين والشرع، وجاء دور الشيخ العز الذي يغضب الله، وينتصر لدينه، ويدافع عن أرض الإسلام وحقوق المسلمين، ويجاهر بالنهي عن المنكر لا يخشى في الله لومة لائم، وتصدى كالأسد

(1) طبقات السبكي (8/ 229)، فتاوى شيخ الإسلام، ص: 109.

(2) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، ص: 19.

الهصور للمواجهة والنزال، وشق عليه ما حصل مشقة عظيمة وبدأت الجولة الأولى باستفتاء الشيخ العز في مبايعة الفرنج للسلاح، فقال: يَحْرَمُ عَلَيْكُمْ مَبَايَعْتَهُمْ، لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين، ثم صعد الشيخ العز منبر المجد الأموي الكبير، وذمَّ موالاته الأعداء، وقبَّح الخيانة وذمَّ الأعمال المشينة التي حصلت، وشنَّ على السلطان، وقطع الدعاء له بالخطبة وصار يدعو أمام الجماهير بما يوحي بخلعه واستبداله، ويقول: اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً، تُعزِّز فيه وليَّك وتذل فيه عدوك ويُعمل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك، والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحدين⁽¹⁾.. وكان الملك الصالح إسماعيل خارج دمشق، فلما وصله الخبر أحسَّ بالخطر الذي يحدق به والثورة المتوقعة عليه، فسارع إلى إصدار الأمر الكتابي بعزل الشيخ العز من الخطابة والإفتاء وأمر باعتقاله، واعتقال الشيخ ابن الحاجب المالكي الذي شاركه الإنكار على فعل السلطان، ولما قدم إسماعيل إلى

(1) طبقات الشافعية (243/8) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص:

دمشق أفرج عنهما، وألزم الشيخ العز بملازمة داره، وألا يفتي⁽¹⁾.

- العز يرفض المساومة، ولو قبّل السلطان يده: توجه الصالح إسماعيل إلى مصر، تحرسه الجيوش الصليبية الحاقدة، ليحارب الصالح أيوب، وكأنه تأسف لإطلاق الشيخ وأوجس في نفسه خيفة، فأرسل إلى سلطان العلماء بعض أعوانه وأمره أن يستنزله على وجه السياسة في زعمه، ليقع منه مداهنة، ولو في بعض الأوقات أو في بعض الأحوال، فقال السلطان لرسوله: تتلطف به غاية التلطف، وتمتنزله وتعدّه بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال؛ فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالف، فاعتقله في خيمته إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع رسول السلطان مع سلطان العلماء، شرع في مسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير. فقال له: يا مكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده، يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له: قد رسم لي إن

(1) المصدر نفسه (8/243) المصدر نفسه، ص: 176.

لم تُوافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك فقال: افعلوا ما بدا لكم، فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان⁽¹⁾، فأخذ سلطان العلماء ﷺ يقرأ القرآن، والسلطان يسمع، فقال يوماً لملوك الصليبيين: أسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال السلطان: هذا أكبر قساوسة المسلمين، وقد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته، فجاء القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم⁽²⁾.. فقال ملوك الفرنجة: والله لو كان هذا قسيسنا؛ لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها⁽³⁾..، والله در القائل:

وَمَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ

مَا لِيُجْرِحَ بِمَيْتِ إِسْلَامٍ

ثم جاءت الجيوش الإسلامية من مصر، ففرقوا عساكر الصليبيين، ونصر الله أهل طاعته، وخذل المنافقين، ونجى الله الشيخ من كيد الشيطان وحزبه، ودخل مصر⁽⁴⁾ آمناً.

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العزّي.

(2) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العزّي، ص: 27.

(3) المصدر نفسه، ص: 26.

(4) المصدر نفسه، ص: 26.

- نصحه للملوك: دخل سلطان العلماء العز بن عبد السلام يوم العيد القلعة، والسلطان نجم الدين أيوب بن الكامل في زينته، وجنوده بين يديه، وأمراء الدولة تقبل الأرض له؛ فالتفت سلطان العلماء إليه منادياً باسمه المجرد: يا أيوب؛ ما حُجَّتْك عند الله، إذا قال لك: ألم أبوء لك مصر، تبيح الخمر؟ فتجاهل أيوب حقيقة السؤال تجاهل العارف وتنمّر المريب قائلاً: هل جرى هذا؟ فرفع الشيخ عز الدين بن عبد السلام صوته: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمر، وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. فقال: سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي، فأجابه الشيخ عز الدين: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: 22) ويتسلل الرعب إلى نفس السلطان؛ فيرسم بإبطال بتلك الحانة، وبدأ الناس يتساءلون عن سر هذه الجرأة ويوجّه هذا الاستغراب والتساؤل إلى سلطان العلماء على لسان تلميذه الباجي:

يا سيدي؛ كيف الحال؟ فقال الشيخ رحمته الله: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه، لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقال تلميذه: أما خفته؟ قال الشيخ: والله يا بني، استحضرت هيبة الله، فصار السلطان قدّامي كالقط⁽¹⁾.

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز، ص: 28.

- سلطان العلماء وبيع الأمراء في المزاد: رأى سلطان العلماء أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين، واستعملهم في خدمته وجيشه، وتصريف شؤون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل؛ لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراءً فضايقتهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى، فقال لهم بائع المملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع المملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعاً ولا شراءً ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع المملوك فقال: نعقد لكم مجلساً، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ رحمته الله في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به⁽¹⁾.

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز، ص: 31.

وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه، ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق - في الدين - بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره، القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الانسحاب وعزل نفسه عن القضاء وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها، والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً وحمل أهله ومتاعه على حمار، وركب حماراً آخر وخرج من القاهرة، وما أن انتشر الخبر بين الناس في مصر، حتى تحركت جموع المسلمين وراءه، فلم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، ولا سيما العلماء والصالحين والتجار وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة، والأمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، المجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورُفِعَت التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه، ولحقه واسترضاه، وطَيَّب قلبه، فرجع بشرط أن يُنادي على ملوك مصر وأمرائها ويبيعهم، فأرسل إليه كبيرهم - نائب السلطان

- بالملاطفة والشيخ لم يتغير؛ لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذ انزعج نائب السلطان، وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف في يده مصلتاً، فطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جلدأ، فعاد إلى أبيه وأخبره الحال، فقال بائع الملوك ممتلئاً إيماناً بربه، قائلاً لولده: يا ولدي، أبوك أقلُّ من أن يُقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان؛ اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً:

يا سيدي ! خيراً، أي شيء العمل؟ فقال الشيخ:
أنادي عليكم وأبيعكم. قال نائب السلطان: فقيم تصرف
ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين. قال نائب
السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا. وأنفذ الله أمره على
يد الشيخ ﷺ فباع الملوك منادياً عليهم واحد تلو الآخر،
وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه
الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد⁽¹⁾.

ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه «بائع الملوك» واشتهر

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، ص: 33 ، 34.

أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعزَّ العلماء، وتمَّ تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر⁽¹⁾». وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته، وهو القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: 38) والقائل: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21).

- العز يهدم قاعة المنكر، ويسقط عدالة الوزير: لم تمض سنة واحدة على حادثة بيع الأمراء في المزاد العلني حتى وصل إلى علم الشيخ عز الدين ما فعله أستاذ الدار عند السلطان، وهو ما يعادل اليوم «كبير أمناء الملك أو الرئيس»، وهو معين الدين ابن شيخ الشيوخ، والذي كان يجمع إلى منصبه، اختصاصات الوزير، وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق، لكنه كان متحللاً وعابثاً ومعتداً بقوته ومنصبه، ولذلك تجرأ على

(1) العز بن عبد السلام، ص: 182، للزحيلي.

منكر كبير، يخالف أحكام الدين ويسخر بالشرع، ويسيء إلى مشاعر المسلمين، فبنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي قاعة لسماع الغناء والموسيقى وذلك سنة (640هـ) وما إن ثبت ذلك عند الشيخ العز وهو يتولى منصب قاضي القضاة، حتى غضب الله تعالى وإهانة بيت الله، وإعلان المنكر، وارتكاب الفواحش، وأصدر أمره بهدم البناء، ولكنه خشي من جبن الناس في التنفيذ، أو المعارضة في الهدم، فقام بنفسه، وجمع معه أولاده والموظفين عنده، وذهب إلى المسجد، وحمل معوله معهم، وقاموا بإزالة المنكر، وهدم البناء المستحدث فوق المسجد، ولم يكتف العز بهذا التحدي للوزير والسلطان معاً، بل أسقط عدالة الوزير بما يعني عدم قبول روايته وشهادته، وعزل نفسه عن القضاء، حتى لا يبقى تحت رحمة اللطان، وتهديده بالعزل أو غيره. وكان لهذا العمل دوي هائل، وأثر عجيب، وتنفس الناس الصعداء من تسلط الحكام، وارتكاب المخالفات وممارسة التجاوزات الشرعية، ولم يجرؤ أحد أن يمس الشيخ العز بسوء، بل أدرك السلطان نجم الدين أنّ الحق مع الشيخ وتلطف معه للعودة إلى القضاء، ولكن الشيخ أصر على ذلك، وظن الوزير أن كلام الشيخ العز سيذهب مع

الرياح، ولكن الواقع غير ذلك، وطار الخبر في الآفاق حتى وصل إلى الخليفة في بغداد وأخذ صداه الواسع في العالم الإسلامي⁽¹⁾. . قال السبكي: واتفق أن جهز السلطان الملك الصالح رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، وأدى الرسالة، خرج إليه وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا ولكن حملنيها عن السلطان معين الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره، فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان بمصر حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدأها⁽²⁾.

- معارضته لشجرة الدر سلطنتها على مصر: قال ابن إياس: فلما وقع الاتفاق على سلطنتها حضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وبايعها بالسلطنة على كره منه، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لما تولت شجرة الدر على الديار المصرية، عملت في ذلك مقامه، وذكرت فيها بماذا ابتلى الله به المسلمين بولاية امرأة عليهم، وكانت

(1) العز بن عبد السلام للزحيلي، ص: 183.

(2) طبقات الشافعية (8/ 211) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص:

سلطنتها يوم الخميس ثاني صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة⁽¹⁾، وفي هذا رد على من يزعم بأن أحداً من علماء الدين لم يبد اعتراضاً على ذلك⁽²⁾. وسيأتي الحديث عن حكم تولي المرأة للسلطنة في كتابنا القادم بإذن الله تعالى عن المماليك.

- في حرب التتار وفتاويه الشجاعة: ومن مواقفه: في حرب التتار الذين داهموا البلاد الإسلامية ودمروا بغداد، وأبادوا المسلمين وعظم خطرهم على العالم الإسلامي وجبن الناس عن ملاقاتهم وحربهم، وخاف أهل مصر، وضافت بالسلطان وعساكره الأرض، عندها تدخل الشيخ رحمته الله وبث الهمة في نفوس الناس وذكرهم بضرورة الجهاد، وعندما استشاره السلطان قطز بأمر المملكة وحرب التتار قال رحمته الله: اخرجوا وأنا ضامن لكم على الله النصر، فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ما أستعين به على قتال التتار⁽³⁾، وكان في مجلس السلطان كبار العلماء والفقهاء والقضاة

(1) بدائع الزهور (1/ 286).

(2) طبقات السبكي (8/ 215) فتاوى شيخ الإسلام العز، ص: 120.

(3) السلوك (1/ 428) النجوم الزاهرة (7/ 72).

فكان الرأي ما ذهب إليه ابن عبد السلام حيث قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الإمام قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوب وسلاح ويتساووا هم والعامّة، وأما أخذ الأموال من العامّة مع بقاءه في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا⁽¹⁾.. فنفذ الملك والأمراء والجند فتوى العز وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم، وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال وضربت وأنفقت في تجهيز الجيش، ولم تكف هذه الأموال نفقة الجيش أخذ السلطان قطز ديناراً واحداً من كل رجل قادر في مصر، فجمع بذلك الأسلوب الفريد المال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه، ومع الاستعداد النفسي الذي قام به العز وإخوانه من العلماء تنزّل نصر الله على عباده المؤمنين، وهزم الله التتار في عين جالوت سنة (658هـ)⁽²⁾. ومن

(1) المصدر نفسه.

(2) فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، ص: 120.

أسباب النصر: شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب المسلم تحت قيادة السلطان قطز، من خلال الفتاوى الفذة التي أفتى بها الشيخ عز الدين بن عبد السلام. وهكذا كانت مواقف العز بن عبد السلام من حكام عصره في حياته المديدة كلها أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صادعاً بالحق، حرباً على الباطل وأهله، عاش أحداث عصره فأثرت به وتفاعل معها، وتأثر بها، فجاهد باليد، كما جاهد بالقلم واللسان، حتى كتب اسمه بأحرف من نور في سجل الخالدين، وترك خلفه مدرسة غنية لكل باحث، وسيرة عبقة يقتدي بها الباحثون عن الحق وأنصار الشرع والعدالة⁽¹⁾.

2 - زهده: لقد ضرب لنا العز مثلاً للزهد بسيرته ومواقفه، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زاهداً في الدنيا مع مشاركته في أحداثها، وانخراطه في حل مشكلاتها ومعضلاتها، فلم يكن منعزلاً عن الناس، بل كان يعيش بينهم رافضاً دنياهم يذكرهم بأخراهم، فكان أغنى الناس رغم فقره، إذ لم يكن يتطلع إلى ما في أيديهم بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، عطاء الواثق بربه، يعطي الأغنياء والفقراء

(1) المصدر نفسه، ص: 120.

رغم فقره ولا يرد سائلاً سأله رغم حاجته، فإذا لم يجد ما يعطي ما في جيبه خلع شيئاً من لباسه، أو جزءاً من عمامته، أو شيئاً من أثاث بيته وأعطى لسائله، كان زاهداً في متاع الدنيا رغم أنه كان ملء سمعها وبصرها، يعمل فيها للأخرة رغم أنها جاءت تسمى راغمة، والدليل⁽¹⁾ على ذلك مواقف كثيرة منها: عندما عرض عليه رسول الملك الصالح إسماعيل أن ينكر للسلطان ويقبل يده ويعتذر إليه من موقفه من التحالف مع الصليبيين وتسلم حصون المسلمين لهم - كما مر معنا - قال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به⁽²⁾، ومن زهده وورعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نصح للملك الأشرف وهو في مرضه الذي مات فيه، فامتثل أمره وعمل بنصحه وأمر له بألف دينار مصرية فردها الشيخ عليه ولم يقبلها وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا، وودع الشيخ السلطان ومضى⁽³⁾.

(1) طبقات السبكي (8/ 230) وما بعدها.

(2) المصدر نفسه (8/ 243).

(3) طبقات الشافعية (8/ 240) العز بن عبد السلام، ص: 107 للزحيلي.

ولما هاجر الشيخ العز من دمشق وقد ناهز المتين لم يحمل شيئاً من حطام الدنيا ومتاع البيت، أو ما كدّسه من مناصبه وأعماله، ولما استقال العز من القضاء عند فتواه ببيع الأمراء ورفض السلطان لذلك، خرج من القاهرة، وكل أمتعته في الحياة مع أسرته، حمل حمار واحد، مما يدل على قناعته بالقليل، وزهده في المال والمتاع، ولما مرض الشيخ العز، وأحس بالموت، أرسل له الملك الظاهر بيبرس أن يعين أولاده في مناصبه وقال: «... أن يكون ولدك مكانك بعد وفاتك في تدريس الصالحية»، فقال العز: ما يصلح لذلك، قال له: فمن أين يعيش؟ قال: من عند الله تعالى، قال له: نجعل له راتباً؟ قال: هذا إليكم⁽¹⁾، ثم أشار إلى تعيين تقي الدين ابن بنت الأعرز⁽²⁾، والحقيقة أن ولد العز الشيخ عبد اللطيف كان عالماً فقيهاً، يصلح للتدريس، ولكن ورع العز وزهده منعه من جعل منصب التدريس وراثته لأولاده⁽³⁾.

3 - حبه للصدقة: كان كثير الصدقات، باسط اليد

(1) طبقات الشافعية للأسيوطي (84/2) العز بن عبد السلام، ص: 107 للزحيلي.

(2) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 107.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

فيما يملك وجود بماله ولو كان قليلاً، طمعاً بالأجر والثواب، وادخار ذلك إلى يوم الدين، حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة رحمته الله، أن الشيخ لما كان بدمشق، وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاعاً لها وقالت: اشتر لنا به بستاناً، نصيف به، فأخذ ذلك المصاع، وباعه وتصدق بثمانه، فقالت: يا سيدي اشترت لنا؟ قال: نعم بستاناً في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمانه، فقالت له: جزاك الله خيراً⁽¹⁾.. فجدد سيرة أصحاب رسول الله واللف الصالح⁽²⁾.. وحكى ابن البكي عن حب العز للتصدق: وحكي أنه كان مع فقره كثير الصدقات، وأنه ربّما قطع من عمامته، وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عمامته⁽³⁾.

4 - ورعه وتقواه: كان العز صاحب ورع متّعده، إذ كان ورعاً ويعلم الناس الورع بمواقفه أولاً، ثم بعلمه الفياض ثانياً، ومما يدل على ذلك قوله: يجب على الخنثى المشكل أن يستتر في الصلاة كالتمستر للنساء

(1) طبقات الشافعية الكبرى (8/ 214).

(2) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 108.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

احتياطاً⁽¹⁾، وقوله: من نسي ركعتين من السنن الرواتب، ولم يعلم أهي سنة الفجر أم سنة الظهر، فإننا نأتي بالسنتين لنحصل على المنسية، ولمن نسي صلاة من صلاتين مفروضتين أيضاً⁽²⁾.

5 - تواضعه وعدم التكلف: كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام متواضع النفس مع ربه ومع الناس ومع نفسه، ولا يتكلف لشيء في حياته ومعيشته ولباسه وسلوكه مع الجميع، فعندما كتب له الملك الأشرف رسالته، وفيها ما يلمزه بالاجتهاد لمذهب خامس في العقيدة: «إن كنت تدعي الاجتهاد، فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى لتكون صاحب مذهب خامس» أجابه العز بكل تواضع وقال عن هذه النقطة: وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذاهب، فإن الأصل واحد⁽³⁾، وعندما جاءه نائب السلطنة في مصر حاملاً سيفه ليقتل العز لفتواه ببيع الأمراء المماليك، كما مر معنا، فقام لاستقباله، فاعترضه ابنه خشية عليه من القتل، فقال له: يا

(1) فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، ص: 106.

(2) قواعد الأحكام (25/2).

(3) طبقات الشافعية الكبرى (8/231، 233).

ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله⁽¹⁾، وكان العز يترك التكلف في لباسه، فكان يلبس مرة العمامة ومرة قبعة من لباد، بحسب ما يتيسر له، ويحضر بها المناسبات والمواكب، قال: ابن السبكي بعد حكاية تصدقه بالعمامة: وفي هذه الحكاية ما يدل على أنه كان يلبس العمامة، وبلغني أنه كان يلبس قبعة لباد، وأنه كان يحضر المواكب السلطانية به، فكأنه كان يلبس تارة هذا، وتارة هذا، على حسب ما يتفق من غير تكلف⁽²⁾.

6 - بلاغته وفصاحته: كان العز بن عبد السلام بليغاً فصيحاً قوي العبارة ذات المعاني المتعددة، وقد ترك لنا أقوالاً ماثورة منها:

أ - في نصرة الحق: ينبغي لكل عالم إذا أذل الحق وأخمل الصواب أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما، وإن عز الحق، فظهر الصواب أن يستظل بظلهما وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما⁽³⁾.

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 110.

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

(3) المصدر نفسه، ص: 110.

ب - الشرع هو الميزان: والشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتيقن الربح من الخمران، فمن ربح في ميزان الشرع، كان من أولياء الله، وتختلف مراتب الرجحان، ومن نقص في ميزان الشرع، فأولئك أهل الخمران، وتتفاوت خفتهم في الميزان، وأخسها مراتب الكفار، ولا تزال المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى منزلة مرتكب أصغر الصغائر، فإذا رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشي على الماء، أو يخبر بالمغيبات، ويخالف الشرع بارتكاب المحرمات، بغير سبب محلل، أو يترك الواجبات بغير سبب مجوز؛ فاعلم أنه شيطان، نصبه الله فتنة للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وصفها الله للضلال، فإن الدجال يحيي ويميت فتنة لأهل الضلال، وكذلك يأتي الخبرة، فتبعه كنوزها كيعاسيب⁽¹⁾ النحل، وكذلك يظهر للناس أن معه جنة وناراً، فإياه جنة، وجنته نار، وكذلك من يأكل الحيات، ويدخل النيران، فإنه مرتكب للحرام بأكل الحيات وفاتن للناس بدخول النيران ليقنوا به في ضلالته ويتابعوه على جهالته⁽²⁾.

ج - الطريق إلى حياة القلوب: والطريق في إصلاح

(1) ذكور النحل.

(2) قواعد الأحكام (2/194) صفحات مطوية، ص: 106.

القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحتها، وتفسد بفسادها: تطهيرها من كل ما يبعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه، ويزلفه لديه، من الأحوال والأقوال والأعمال وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه، والإصغاء إليه والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات، وحال من الأحوال، على حسب الإمكان، من غير أداء إلى السامة والملال ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال، والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرنا من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة بجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشريعة، ولا ينكر شيئاً منهما إلا كافر أو فاجر، وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شرٌّ من قطاع الطريق، لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى وقد اعتمدوا على كلمات قبيحات، يطلقونها على الله، ويسئون الأدب على الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء من العلماء والأتقياء، وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم وعن سلوك طريقهم⁽¹⁾.

(1) قواعد الأحكام، نقلاً عن: صفحات مطوية، ص: 107.

كما أن للعز صفات كثيرة تحدثت عنها في ثنايا ترجمته، كالعلم والفقه، والتوكل والهيبة... إلخ.

تاسعاً: أهم محاور التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

ليس المراد بالتجديد تغيير حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهواءهم، ولكنه تصحيح للمفاهيم المترسبة في أذهان الناس عن الدين، وتعديل لأوضاعهم وسلوكهم وفقاً لتعاليمه وإرجاعه غضاً طرياً بعد أن تراكمت عليه البدع والانحرافات، وكل هذا ينطبق على الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد أمات البدع وأحيا السنن، كما حارب التقليد وأحيا الاجتهاد، ومارس دور العالم المجاهد في قيادة الأمة، فالتف الناس حوله، واتخذوه إماماً بدون منازع، وهو جدير بذلك، فقد كان يدافع عن مصالح الأمة بيده ولسانه وبقلمه ويحفظ حقوقها، ويدراً عنها كل المفسد، ومن نقاط التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

1 - **النقطة الأولى: سعيه لتقنين أصول الفقه:** يظهر سعي الشيخ عز الدين لتقنين أصول الفقه فيما نلاحظه أثناء دراسة كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» من